Coptology

عواصف الأصولية القبطية ...

متى يهل علينا فجر التنوير؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

عواصف الأصولية القبطية ...

متى يهل علينا فجر التنوير؟

هذه محاولة، وكل محاولة ليست كاملة، فلستُ مِن دعاة التنزيل. وأعني بكل دقة، أنني أحاول أن أصف، بل أن أحلل أسباب الخلل، وأحاول أيضاً أن أقدم للعقلاء الحلول. والمحاولات هي دأبُ الإنسان منذ بدء الحضارة، أن يتقدم، رغم محاولات تراجعٍ إلى الوراء. مصدر التقدم هو البحث عن الأفضل، ومصدر التراجع هو خوفٌ من التقدم؛ لأنه يلغي المألوف، فقد صار المألوفُ دعامةَ بقاءٍ، ليس لأنه الأفضل، بل لأنه مألوفٌ.

الأصوليةُ هي تراجعٌ إلى الخلف، مع أن حركة الإنسان البيولوجية والفيزيولوجية الطبيعية هي التقدم إلى الأمام. وفي الأصولية، نرى أكبر ضربة توجَّه إلى الإنسان، وهي هزيمة التاريخ الإنساني، باختيار فصولٍ معيَّنةٍ على أنها هي الكمال الذي لا كمال بعده.

وقد حَفِظَ لنا التاريخُ "التعدديةَ"، وتنوع الآراء. وسيادةُ رأيٍّ لا يعني أنه هو الأفضل، بل لأن السيادة عُرِفَت في تاريخ الإنسان عامةً على أنها إجماعٌ وخضوعٌ، وتسلُّط الأقوى، واختيارٌ يفرض نفسه، ربما؛ لأن في لحظةٍ استكان فيها الوعي الإنساني، ورضى بالواقع الذي فرض نفسه، فتحول ذلك إلى اختيارٍ عَبَثَ فيه المال والسلطان والخوف والأمل، وطبقاتٌ أخرى من تراكمات عقلية ونفسية في أهم ما يميِّز الإنسان، وهو حرية الفكر، وإيمان الإنسان بذاته، قبل أن يؤمن بالقوى الكونية الأخرى التي تحدد له مسار مصيره، قبل أن يُولد مثل حركة الأجرام السماوية، أو نبوات العِرافة، وتوقعات قراءة الكف، واستطلاع الغيب في جلسات استدعاء أرواح الموتى؛ لأن الأحياء فقدوا السيطرة على حياتهم.

الاستكانةُ والتسليم بالأمر الواقع، نُسِبَ إلى الإيمان بالله، وكأن الله نفسه جاء بصورةٍ معيَّنةٍ عن الحياة الإنسانية، تُفرض باسم الإيمان بالله!! مِن هذا المدخل بالذات، دبَّ صراعٌ عنيف بين الشريعة والإنجيل، تراه وقد رُسِمَ بدقةٍ لا مثيل لها في تاريخ المسيحية، في أربعة رسائل، هي: رومية – غلاطية – كولوسي – العبرانيين، وهي الرسائل الأربعة لأكبر مرتد عن الشريعة، وهو شاول الطرسوسي، بولس الرسول بعد ذلك، الذي حَسبَ كل ما كان يظنه ثابتاً ومريحاً وواضحاً، "زبالةً"؛ لكي يحيا حياةً حرةً إنسانيةً كامِلةً مستعلَنةً في المسيح (راجع فيلبي ٣: ٧).

شريعة موسى ثابتة، وهي مصدر التسليم والاستكانة؛ لأن الإنسان أمام الشريعة بلا حرية، لا يملك أن يختار إلا ما يُقدم له من فتاوى شملت ما يزيد على ٢٠ مجلداً، عُرفت باسم التلمود البابلي، وأخرى باسم التلمود الأورشليمي، بل سبقها "المشناه"، وهي شرحٌ تفصيلي لِما جاءت به شريعة موسى في اللاويين والتثنية، وأضاف إليها علماء اليهود "المدراش راباه"، وهي شرح الأسفار، وفيها محاولات دائبة للحد من طغيان الشريعة، وقتل حرية الإنسان، بل جاءت "الظوهار" في محاولة للبحث عن الجانب "المستيكي"، ونُشِرَت أخيراً بعد منعٍ دام أكثر من ١٠٠ سنة في ١٢ مجلد مع الحواشي الآرامية.

صراعُ الإنسان مع الشريعة، تراه واضحاً في رسالة غلاطية، وهو صراعُ امتلاك الإنسان لما يقوم به هو نفسه، وما يعتقد أنه أمر إلهي يقوده إلى معرفة الله مثل الانتماء لإبراهيم بالختان، والاغتسالات، وأنواع الأطعمة، وغيرها من وصايا، كلها تعيد الإنسان إلى ذاته وليس إلى الله: هل فعل وقام بالوصية أم تعدَّى الوصية؟ ومع كل الوصايا جاءت طقوس اللمس والاستعمال (كولوسي ٢: ٢٠-٢٣) التي وُصِفَت بأنها زيادات وُلِدَت من أجل تقييد حرية الإنسان.

لقد ضُرِبَ بولس بالعصى؛ لأنه تجاسر أن يتكلم ضد شريعة موسى (٢كو ١١: ٢٣-٢٨)، وهي عقوبة معروفة لنا من المشناه. لماذا يكتب بولس، ولماذا يصف

نفسه بأنه هدم الشريعة (غلا ٢: ١٨)، وأنه إذا عاد إليها وطالب برجوع الشريعة، فسوف يُتَّهم كمتعدٍ؟ والجواب؛ لأن الحرية غابت، بل غاب حتى أهم ما جاء في الأسفار القديمة، وهي: "حِب الرب إلهك وقريبك كنفسك". ووجد بولس أن الهروب من المحبة، هو ذاته الاحتماء بالشريعة، بل وفي التمسك الشديد بها إلى درجة محاولة قتله هو، أن القاتل أو القتلة يجدون ويكتشفون وجودهم وخلاصهم في معارضة الآخر بالتصفية الدموية. وهو ذات المنظر الذي نراه في شباب وشابات ولدوا في الغرب، وعادوا إلى سوريا أو العراق للقتل والذبح في صفوف داعش، والسبب هو أنهم بلا هوية وبلا كيان لم يُكتَشَف، بل كيان أُهمل.

هو ذات الحراك الأصولي القبطي في مواقع إليكترونية وفي برامج تبثها الفضائيات، تحرص على الاحتفاظ بالواقع كما هو، والويل لمن يسأل أو يحاول أن يمس الحداثة، أو يدعو إلى البحث التاريخي. فالاتهام العام، وهو اتهامٌ قديم، أقدم من اتهام سقراط بالإلحاد؛ لأنه أنكر عبادة الأوثان، الاتهام العام هو أنت هذا وذاك. فإن كان القاتل أرثوذكسياً، فهو يذبحك بسكين البروتستانتية. وإذا كان بروتستانتياً، فإنه يذبحك باسم الكتاب المقدس، ويُجهِزُ عليه بسكين أنك تابعٌ لتقليد البشر. وإذا كان من الغوغاء، فهو لا يتردد في أن يسوق ما يشاء من اتهامات.

خلف كل هذا، يقبع غياب الحرية الشخصية، وإحكام سيطرة الشريعة، واستخدام سوء فهم الطقوس، على الشخص. صراع بولس كان يدور على الشخص قبل الشريعة، وهو هنا ينادي بذات المبدأ الذي نادى به يسوع نفسه: "السبت من أجل الإنسان"، فقد وضع الشريعة لخدمة احتياجات الإنسان، لا الإنسان لخدمة ما تطلبه الشريعة. ومات يسوع مصلوباً، ومات بولس شهيداً، وجاء من بعده رجال شرفاء ماتوا باسم الشريعة في كل زمان ومكان.

الزمكان تعبيرٌ جديد يجمع بين الزمان والمكان معاً، فقد ثار عابدوا الشريعة؛ لأن الميرون طُبِخَ بطريقة مختلفة، وكأن طريقة الطبخ هي أساس شرعية مسحة الروح

القدس! وأنه علينا أن نقول للروح القدس نحن نرتب لك عملك حسب طقسنا، فلا يجوز لك العمل إذا جاء شخصٌ وحاول تحديث الطريقة، إياك أن تجيء!!!

وصارت كلُّ أُمٍّ لنا نجسةً بحكم الشريعة، وميلاد الرب من العذراء الذي حلَّ كلَّ لعنةٍ ونجاسةٍ –حسب ترتيل التسبحة– أُبعد عن الوعي؛ لأنه يفك رباط الشريعة. والذين حُرِموا من المرأة، سواء كانت الأم أم الأخت وتعذَّر عليهم الزواج، هؤلاء هم الذين يريدون وضع المرأة في سجن النجاسة باسم الشريعة لإسقاط ما لديهم من غيظ على النساء.

العلاقات الإنسانية، وإلى أين سوف تنتهي، إذا سادت الأصولية؟

الحرمان هو قتل معنوي يمارسه القتلة بكل قساوة ضد كل من يختلف معهم بدون أن يكون لدى القاتل أو القتلة دليلٌ واحد على هرطقة. يُقتل الأب متى المسكين في كل مناسبة بلا دليل واحد، ويُقتل كاتب هذه السطور في مناسبات معينة، وينال القاتلُ الأجر، بل الصيت؛ لأنه يخدم مجتمع عبيد لا يعرفون الحرية.

التجسد الإلهي هو مجيء الخالق نفسه، واتخاذه جسداً وعقلاً وإرادةً إنسانيةً لكي يحيا بيننا وعندنا إلى نهاية التاريخ. ولم يكن التجسد حسب الشريعة، ولا أيضاً الصَّلب ولا القيامة أو الصعود والجلوس عن يمين الآب. ولم يعطِ المتجسدُ الروحَ بكيلٍ حسب قوله: "ليس بكيل يعطي الآب الروح القدس"؛ لأن المكيالَ هو تقنينُ الشريعةِ.

الشريعةُ قانونٌ صارمٌ لا يعرف الحرية، ولا تنادي الشريعة بالحرية، أما الإنجيلُ، فأسدٌ يزأرُ في أرض العبيد، لا يعرف مهادنة العبودية، والصراعُ قائمٌ...

لن تنتهي العلاقات الإنسانية إلى اجتماع المحبة بل إلى التشرذم؛ طالما أن لغة القسوة قد سادت طوال ٤٠ عاماً، وصار الهجوم على الآخرين هو طابع الحياة العامة، وكأن اكتشاف الخطأ هو عمل الكرازة، وكأن الهجوم على الآخرين هو الدفاع عن

الإيمان، وصارت الشتائم من الأدلة التي لا تفارق الهجوم، ويهمنا أن نضع أمام القارئ الحقائق الآتية:

١- إن اكتشاف خطأٍ ما -مهما كان- يجب أن يكون جزءً من شرح الإيمان، وأن الخطأ الذي يُحاسب هو التعدي على ما هو صحيح، وما هو يمارس، وما هو ثابت، لا ما يقدِّره أي إنسان حسب قدراته وحسب "مزاجه/هواه". فالهوى هو المرجعية لا التاريخ ولا الآباء ولا حتى الكتاب المقدس. الخلافُ حول الخطية الأصلية، هو خلافٌ حول تاريخ العقيدة في الشرق وتاريخ العقيدة في الغرب. ومِن معاهد ومراكز البحث الأكاديمي صدرت دراساتٌ أشرنا إليها[1] ابتداءً من دراسة N. P. Williams إلى ما صدر بعد ذلك مثل تاريخ العقيدة عند Seeberg وعند J. N. D. Kelly وغيرهما. بينما عندنا في الشرق لم تظهر إلا محاولات، ودراسات في مقالات، وبالرغم من ذلك جاء الهجوم دون أسانيد، وكأن الاتهام هو الحقيقة، وكأن الرأي المعارض هو التاريخ. هذا مظهرٌ يؤكد انعدام الحرية — انعدام الاحترام — انعدام المحبة، والمحصلة انعدام الحوار.

٢- لم يكن الاتهام بالهرطقة اتهاماً تاريخياً، أي اتهامٌ يقوم على أسس تاريخية، بل اتهاماً شخصياً، وأعظم مثال على ذلك هو الحوار الذي دار حول "شركة الطبيعة الإلهية"، حيث دار سجالٌ حول حرفي الجر: "مع" — "في"، كأن الحَكَم هو اللغة، كأن المتجسد جاء بدرسٍ أو بدروسٍ لغوية، لا باستعلان المحبة!!! والمحبة ليست درساً يقال، أو عظة نسمعها، بل كانت ولا تزال حياةً تُعطى. هنا نرى دور الشريعة: حكمُ اللغة حسب مقدار فهم صاحب الحكم - تقديرٌ شخصي بعد استبعاد التاريخ.

٣- إن غياب الحوار هو غيابُ المنهج، والمنهج ليس من وضع شخصٍ، ولا تحكمه الظروف، بل هو نابعٌ من معرفة التاريخ، ولكنه للأسف، هو القائد المستبعد الذي لا حضور له. الحكمُ بعدم قانونية تجليس البابا تواضروس الثاني جاء من شخص

---

(١) راجع في ذلك تفصيلاً، كتابنا: وراثة الخطية أم سيادة الموت؟، القاهرة، ٢٠١٤.

وُصِفَ بأنه عالم لاهوتي كبير، فهل كان لدى هذا العالم الكبير، معرفة أرثوذكسية تمكِّنه من أن يشرح ما جاء في القانون الكنسي: "محروماً من فم الثالوث القدوس"؟!!! لا يوجد شخصٌ ما -مهما كانت رتبته- أن يُصدر حكمَ حرمانٍ بلا مجمع، وبدون شهود، وبدون تحديد التهمة، وبدون ذكر السبب التاريخي الذي يمنع رسامةَ أسقفٍ مرتين. فهل جادت قريحة هذا العالم اللاهوتي الكبير، علينا بمنع سبب وضع اليد مرة واحدة؟ وهل حقاً إن الرسامة هي بوضع اليد أو بالمناداة؟ هل هذا هو تعليمٌ ثابتٌ، أم رأي شخصي؟ وما هي المراجع، أو المرجعية التاريخية التي بنى عليها هذا العالم اللاهوتي حكم الحرمان من فم الثالوث القدوس؟

الآخر، مَن هو، وماذا فعلنا به؟

عندما درسنا الفلسفة، كان كتاب Emmuel Levinas وعنوانه Humaism and the other كان بمثابة صدمة لمن تربى وعاش على ثقافة أُحادية الفكر، أي الفكرة الواحدة التي تلخص الآخر كله في عبارات أو عبارة واحدة، مثل "ذمي" أو "نصراني". وكنت أجد ذلك في لغة الصحوة القبطية مع اختلاف اللفظ، إذا حلت كلمة "بروتستانتي" محل كلمة "ذمي"، ولم أجد عند Levinas أي حل لمعضلة الفكر الأحادي الوصفي الذي ينتهي عادةً بالصفر. واحتقار الآخر هو نوعٌ حقير من الرفض المطلق تحت أسماء متنوعة.

إن رفض الآخر تحت أي اسم أو أي بند، إنما يكشف شيئاً عند الرافض والطاعن، يكشف عن عداوته ويكشف وهم الانتماء إلى ذاتٍ عليا تعلو على الآخر، وتملك حذف الآخر تماماً. هذا لا تعرفه الفلسفة الأوروبية بالمرة .. الآخر -حسب الإيمان- هو عضوٌ في جسد المسيح، وعندما سقطت الكنيسة كجسد المسيح من الوعي، وظلت قائمة كمؤسسة تملك إصدار ما تراه من اجتهادات كلها تدور حول شريعةٍ ما، حوَّلت الآخر من عضوٍ في جسد الرب يسوع نفسه إلى شيء، فأصبح التشريع يمسُّ الربَّ نفسه، وهو مجمل ما صَدَمَ بولس عندما نوى الهجوم على

المسيحيين في دمشق، إذ سمع صوت الرب: "لماذا تضطهدني" (أع ٩: ١-٢)؟

الشيءُ قد يكون رقماً أو فكرةً، وبالتالي، فإن تشييء الشخص كعضوٍ في جسد المسيح، وتحويله إلى أحد "أتباع متى المسكين"، أو أنه "متَّاوي"، أو غيرها من أوصاف، لا شك ينطوي على إنكار الانتماء لجسد المسيح.

تاريخياً، كان الهجوم على الكنيسة جسد المسيح قد تجنَّب تماماً كل الإيجابيات التي قيلت في كتاب "العنصرة"، وهو من بواكير كتابات الأب متى المسكين. وخلف الهجوم والاتهام يكمن -في حقيقة الأمر- إعدام الآخر بهدم الهوية الإلهية التي أعطيت له. وعند الانتهاء من الآخر، ينال القاتل عافيته "ويتنفس رائحة الرضا"، فقد أزال القاتلُ الآخرَ من الوجود، وجعله العدو، ووصف كتبه بـ "تعاليم الأب متى المسكين" أو "تعليم د. جورج بباوي"، حتى لو كانت كل العبارات هي لأثناسيوس الرسولي؛ إذ يجب التستر على المصدر حتى يتم لفظ الآخر.

ومَن يجد لذةً في التشدق بحكم إعدام وخلع من عضوية الكنيسة، يكشف عما في باطنه من عداء ورغبة في القضاء على الرب نفسه، هي نابعة من القضاء على الآخر الذي "مات لأجلنا". أما الذي يكشف الضمير المثقَّل بالعار والإثم، فهو تغيير عبارة "مات عني"، إلى "مات بدلاً عني"، و"عوقب بدلاً مني". وعندما يتم قتل الآخر، وهو هنا يسوع، يصبح قتل الآخر سهلاً؛ خصوصاً إذا كان المسيح قد دفع الثمن، أي ثمن الجريمة، ولذلك لا مانع من أن يقتل كل من يختلف معه.

هذا هو التكفير الذي يُمارَس داخل حقل لاهوت "أخطأ في ترتيب منظومته"، وبناءً على ذلك أخطأ في تحديد الآخر؛ لأن المنظومة الجديدة أصبحت هي الانتقام من الخاطئ ودفع ثمن الخطية، وأن الآخر ليس هو رب السماء والأرض الذي جاء للشفاء وتحرير الإنسان، بل هو كبش فداء مثله مثل ذبائح العهد القديم، وأن حرقه بنار العدل هو العدل نفسه، وبعد أن احترق، هل ظهرت الرحمة والمحبة؟ الجواب هو بالنفي؛ لأن الرحمة لا تعرف التشفي، ولا الغاء الآخر.

بعد هجمات ١١ سبتمبر، عُقد مؤتمر في جامعة لنـــدن Kings College في ٢٠ سبتمبر، و لم يكن هذا المؤتمر يبحث الهجوم على نيويورك أو التطرف أو .... الخ، بل كان البحث هو عن الآخر. وقد تقدمتُ بمساهمة قصيرة جداً تدور حول الأبحاث التي قدمها كلاً من C. K. Ogden و I. A. Richards في مجلد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٣ بعنوان The Meaning of Meaning كان البحث القصير يدور حول اســتخدام حــرف النفي "لا"، وجاء التمييز بين لا النافية ولا اللاغية، وكلاهما مــن حركــات الفكــر الإنساني. فالنفي يصنع علاقةً جدليةً Dialectic بين موضوعين، ويظل كلاهما في تفاعل تام. أما الإلغاء، هو العدمية Nihilism وهي ليست نفياً، بل حذف الوجود، والتطويح بما هو موجود وكائن إلى العدم.

عندما كانت الكنيسة تفرز هرطقةً ما عبر تاريخها الطويل، كان هذا الإفــراز عملاً جماعياً، يتم في مجمع، وكان سبب ذلك هو إتاحة الفرصة لأكبر عدد حــتى لا تتدخل النرجسية في القرار. وكان ردُ الكنيسة على الهرطقة هو دائمــاً رداً إيجابيــاً، يتلخص في عبارة واحدة: "ماذا يحدث للإنسان نفسه، لو كان المســيح مجــرد نــبي؟ والإجابة هي: فقدان الحياة الأبدية والتبني وميراث الملكوت والقيامة؛ لأن هذه كلــها عطايا يقدمها الله. و لم يكن شجب أريوس أو غيره، قراراً بالإلغاء، بل قراراً بــالنفي لكي تبقى أمام كل الضمائر الحية تلك العلاقة الجدلية التي تفرز الصواب والحق. والحق هنا هو أساس المسيحية الراسخ، أي شركة الله في حياتنا، فقد جاء هو، وأسس علاقةً جديدةً في اتحاد الألوهة بالناسوت، ومن هذا الاتحاد وُلِدَت كلُّ علاقة الإنسان بــالله؛ لأن الله هو الواهب. وبسبب هذا الرد الايجابي النافي للعلاقة التي تحــاول الهرطقــة أن تغيِّرُها، كان تقديم الشرح الإيجابي هو دائماً ما تحرص عليه كل كتابات الآباء.

أمَّا في زماننا، فقد ظهرت كلمات "شطط"، "انحرافات عقائدية"، ولكننــا لم نسمع من هؤلاء المدعين أين هو الشطط بالتحديد، وما هو الانحراف؟

ماذا فعلنا بالآخر؟

لقد قضينا عليه، و لم نسمح حتى بصلاة الجناز لمن كانوا على خلاف. ولأننا لم نكن نملك أن نحاكمهم وهم أحياء، اكتفينا بأن نحاكمهم أمواتاً، مثلما حدث مع القس إبراهيم عبد السيد ود. نظمي لوقا والأستاذ موسى صبري، وتهديد كاتب هذه السطور بذات القرار. لم يعد لدينا فرحٌ بالحق، ولا رغبة في الشهادة، بل صمتٌ تام. والمعاناة من الأخوة الكذبة التي عاناها الرسول بولس وعبَّر عنها في (٢كو ١١: ٢٣-٢٨)، هي نفس معاناة كل من يشهد للحق ويواجه الكذبة، لا سيما في العصر الحديث.

في كل مدينة سافر إليها بولس، وَجَدَ من يقاومه، في دمشق (أع ٩: ٢٣)، في أورشليم (أع ٩: ٢٩)، في انطاكية (أع ٢٣: ٥٠)، في أيقونية (أعمال ١٤: ١٩)، في تسالونيكي (أع ١٧: ٥)، في بيريه (أعمال ١٧: ٢٣)، في كورنثوس (أع ١٨: ١٢). وعندما سافرت إلى انجلترا -وصدر قرار الحرمان، ليس من جهة الاختصاص، وهي الكلية الإكليريكية، بل من لجنة الأنبا بيشوي -وحصلت على عمل بالجامعة، جاء الأنبا بيشوي ليقول لرئيس أساقفة كانتربري إنني ضابط في المخابرات المصرية، وقبلها أرسل كهنة لندن خطابات سيئة لجامعة برمنجهام لمنعي من العمل، ولكن جاءت أحابيلهم بعكس ما كانوا يتوقعون لأن الديموقراطية البريطانية لا تحاكِم بلا دليل، وأن حرية الشخص تعلو على أي اتهام حتى يتأكد القانون أنه مخطئ.

وبعد، ... المستقبل عندي وليس عند القتلة، ومَن يفتخر بقتلي هو داعشي قبطي يقول إنني محروم ومحروم إلى الأبد حسب فكره؛ لأنه قتلني واستراح، كما قتل الآب ابنه الوحيد واستراح، وإن كان موت الابن الوحيد بيد الكذبة هو الذي أسس استعلان المحبة، وأصبح مصير الابن الوحيد هو مصير كل مصلوب، حتى لو كان مثل اللص اليمين سوف يذكره التاريخ والشرفاء دائماً.

د. جورج حبيب بباوي